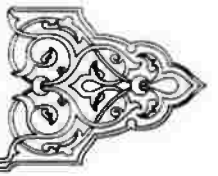

عيسى يفرق عيسى يوحد

«لا يرضى كلُّ إنسان بمقولة: إن الطريق هو الهدف»

(ألويس براندتر).

- ١ -

دعنا نتأمل أحدث الكتب عن «تاريخ الله» لكارين أرمسترونج، وهو يستعرض قصة الإيمان التى ترجع إلى حوالى ٤٠٠٠ عام، متناولًا إله إبراهيم وإله آينشتين وجاك ميلز. يميل الكتاب إلى الرأى القائل بوجود تصورات مختلفة عن الإله بقدر اختلاف اليهود والمسيحيين والمسلمين. وإذا كان هذا أمر صورة الإله، فإن الأمر لا يختلف كثيرًا بخصوص تعدد صور المسيح. ولذلك، فمن المحتمل أن يكون عيسى الذى يوحد الناس غير عيسى الذى يفرقهم، فقد ظهرت على مر التاريخ ثلاث صور مختلفة لعيسى:

١ـ كان عيسى يهوديًا مارقًا مجدفًا حين عَدَّ نفسه بغير حق المسيح المخلص (المفهوم اليهودى).

٢ـ إن عيسى إله وإنسان فى الوقت نفسه (مفهوم التجسيد الذى تتبناه الكنيسة الكاثوليكية والكنائس المسيحية).

٣ـ إن عيسى نبى ورسول يهودى مصلح (المفهوم الإسلامى).

عاش فى الغرب حتى مائة عام مضت أناس رفضوا بشكل فردى الرؤية المسيحية للمسيح وللدين من أمثال جوته وغيره، ولكن لم يشكل هؤلاء الأفراد حركة تمرد علنية منظمة معارضة لما تروجه الكنيسة من عقيدة.

لقد بدأت حركة التمرد هذه فى الظهور فى القرن التاسع عشر من خلال محاولة إجراء مراجعة نقدية تاريخية للمصادر المكتوبة التى تستمد منها المسيحية تعاليمها، ولقد قام بهذه الحركة لاهوتيون، وكان لها نتائجها المدمرة. وأذكر فى هذا الصدد أسماء بعض أساتذة علم اللاهوت من الكاثوليك والپروتستانت مثل هانز كامپنهاوزن، رودولف بولتمان، أدولف هارناك، چون هيك، إيمانويل هيرش، هانز كونج، جيرد لودمان، پول تيليش، كارل رانر، أدولف شلاتر، هانز يواكيم شوپس، ويلفريد كانتويل سميث، ولفهارت پانينبرج.

لم تشارك الجموع المسيحية فى هذه العملية، خاصة أن عملية المراجعة هذه قد حرصت الكنيسة على حجبها عن الجماهير والتكتم على أمرها.

كان العهد الجديد كنص تاريخى أول ضحايا عملية نقد المصادر هذه. لقد قام بولتمان باتباع المنهج التاريخى النقدى المعمول به فى الأدب فى تحليله وتناوله للنص المقدس. وهكذا قام بتفسير «علاقة رسالة المسيح الأصلية بالشخصية التاريخية لعيسى». ولقد سار فى تحليله إلى أقصى مدى، وتوصل إلى استحالة القيام بعملية كتابة صحيحة لتاريخ عيسى للظروف المحيطة بنشأة الأناجيل. لا يوجد رغم المجهودات المضنية مصدر أساسى، لا يوجد «إنجيل عيسى»[1].

لقد توصل البحث إلى نتيجة مفادها أن النصوص السبعة والعشرين التى يتضمنها العهد الجديد ليست حقيقية أو واقعية بكلِّ ما تعنيه هذه الكلمة، أى أن يكون كاتبها معروفًا وأن يكون معاصرًا لعيسى. ليس لدينا سوى روايات مصدرها الغرباء عن عيسى، ولكن هذه الروايات ليست مروية أو مكتوبة باللغة الأم، أى باللغة الآرامية، وليست صادرة عن شهود عيان، فكيف يتسنى لنا أن نعلم بما كان يريده أو يعنيه إن لم نكن حتى نعلم ماذا قال؟.

لذلك لم يستطع الكثيرون نفى حقيقة أن نشأة النصوص المسيحية المقدسة لا تعود إلى أحداث تاريخية بقدر ما تعود فى حقيقة الأمر إلى غيرها من الشئون. وهذا يعنى: أننا نعلم علم اليقين التأثيرات التى أحدثتها الظاهرة «عيسى»، ولكننا لا نعلم صاحب هذه الظاهرة والتجربة: «عيسى». فعيسى ليس مؤسس الدين المسيحى بقدر ما هو موضوع هذا الإيمان والدين، أى عيسى هو هذا «المجهول العظيم»[2]. يقول لودمان: «إننى لا أؤمن ـ إذن ـ بالكتاب المقدس ككلمة الله لنا، ولكن أؤمن بعيسى الذى يقف خلف نصوص العهد الجديد تخنقه التقاليد الكنسية المتراكمة»[3].

لقد توصل كثير من الباحثين إلى استحالة إمكانية الحديث عن وحدة العهد الجديد وخلوه من التناقضات وصحته، بغض النظر عن مسألة كتابته. ويعتقد لودمان أن العهد الجديد هو اختيار الكنيسة للنصوص لتحقيق أهدافها، وهى مجموعة نصوص الجانب الفائز والفريق المنتصر. لقد تم تدوين هذه النصوص بعد أن اجتازت المسيحية بداياتها بزمن، وهى بالتالى ليست كلمة الله، بل كلمة الإنسان.

---

(١) انظر: ماك (١٩٩٣).

(٢) دشنر (١٩٨٨) ص٨٣.

(٣) لودمان (١٩٩٥) ص٢٢٦.

ويعتقد لودمان أن «التدقيق التاريخي لنشأة العهد الجديد وما يحتويه من مقدسات، يؤدى إلى انهيار أبنية الكنيسة وعلم اللاهوت كما لو كان بناؤهما من ورق»[٤].

ولقد عبر كثير من علماء اللاهوت عن استيائهم البالغ من تزوير بعض الوثائق الكاملة، مثل رسالة بولس الثانية، وكذلك الرسالة الثانية لبطرس، وكذلك جميع المواضع الخاصة بمسألة الثالوث، ومن ضمن هذه المواضع: رسالة يوحنا الأولى (٥: ٧)، وأمر التعميد «باسم الآب والابن والروح القدس» (متى ٢٨: ١٩).

أصبح نقد العهد الجديد هما وشاغلًا عظيمًا للباحثين فى علم اللاهوت، حتى يتوصلوا إلى ما سبق عام ٣٢٥ ليتمكنوا من إعادة اكتشاف المسيحية الحقيقية ذات الأصول اليهودية. يعتقد جون هيك أحد أبرز نقاد هذه الدوجما وتعاليم الكنيسة ـ عن حق ـ أن مجرد مناقشة التجسيد والثالوث قد سلبت الاثنين قدسيتهما ومكانتهما حتى صار الاثنان مجرد نظرية. من المحتمل أن ينطبق هذا الأمر على الغرب. أما بالنسبة لكنائس الشرق الأرثوذكسية، فإن دوجما وتعاليم الثالوث استطاعت أن تقف فى وجه الزمن بشكل أفضل مما حدث فى الغرب. وربما يعود ذلك إلى أن علماء اللاهوت الشرقيين طالما تعاملوا مع مسألة الثالوث كلغز وسر فى حد ذاته، بينما وقعت كنائس الغرب ضحية لمحاولتها تفسير هذه الدوجما بشكل عقلانى.

أما أكثر المواقف تطرفًا، فقد تبناها بعض علماء اللاهوت المسيحيين من أتباع پول تيليش مؤكدين رأيه أن عيسى رمز جميل، جميل لدرجة تجعل من الضرورى اختلاقه إن لم يكن قد وجد فعلًا، حتى أن أمر الحقيقة التاريخية لعيسى تصبح غير ذات أهمية. فالإيمان والدين المسيحى ليسا بحاجة إلى تسويغ تاريخى، ولكن كما قال بولتمان إلى: «لقاء روحى مع المسيح». ويتشابه هذا القول مع رأى إكو: «بماذا يؤمن من لا إيمان له؟». ووفقًا لذلك، فإن المسيح حتى لو كان مجرد شخص فى حكاية مؤلفة، فإن هذا التأليف رائع وشديد الجمال ويتسم بسحر وغموض يضاهى فكرة ابن الله الحقيقية.

يُعَدّ كل ما سبق ذكره مجرد خطوات لتجديد ما قام به شلاير ماخر من قبل، وهو تحويل الدين إلى فلسفة جمالية. تتخلى فلسفة الحياة هذه عن جميع مضامين الإيمان الموضوعية وتلقى بها خلف ظهرها لتصبح «دينًا بلا إله»؛ لأن ديننا ينحصر فى إحساس الفرد الداخلى، ويترفع عن الحياة والعالم الحقيقى، ويصبح كما قال جوته: «مسيحية لاستخدامى الخاص»[٥].

فالدين إما أن يكون دينًا وإما لا يكون!

---

(٤) لودمان (١٩٩٥) ص٨ و ٩ و ٢١٥.

(٥) جوته فى «الشعر والحقيقة» فرانكفورت ١٩٩٣، الجزء ٥ ص ٥٧٥.

وقام الأمريكى ماثيوفوكس، هذا القسيس المنتمى إلى جماعة الدومنيكان سابقًا، بإجراء تغيير فى النموذج، فدعا إلى تغيير نموذج عيسى من عيسى التاريخى إلى عيسى الكونى[٦].

ولقد انزلق فى محاولته هذه إلى فلسفة تتسم بمواصفات مرحلة ما بعد الحداثة، ومليئة بالعناصر الغامضة والغنوصية.

ولكننا نتساءل: هل تملك صورة عيسى الكونى مقومات الحياة إذا هى تخلت عن صورة عيسى التاريخى؟ أو ليست صورة عيسى المتعالية على الحقيقة التاريخية وصحتها، هذه الصورة المختلفة، المفتعلة، أو ليست شفرة إضافية للحقيقة غير الملموسة؟.

هناك تلاعب لاهوتى أقل تطرفًا، بمقتضاه هناك بالفعل عيسى، كحدث وقع فعلًا: «Jesus - Event» كنواة تاريخية للمسيحية، وكل ما عدا ذلك، أى ما تبع ذلك من المسيحية ما هو إلا تأملات نظرية.

لقد كان عيسى أكثر من مجرد فكرة جميلة. لقد كان تجليًا مميزًا ووحيًا فى الشخص ذاته[٧]. ويقول كلاوس برجر إن الله الخفى قد أصبح «مرئيًا ومنظورًا» من خلال «ظهور عيسى كإله، وشفافية تجلى الله من خلال عيسى ووجوده فيه»؛ لأن عيسى «نفاذ ومتخلل بشكل كامل فى الوجود الإلهى، فى وجوده هو»[٨].

وبتعبير وصياغة كلمات مايكل ليلونج: «فإن الله قد تجلى بكامل وجوده فى المسيح عيسى، وعَرَّف نفسه فيه وظهر من خلاله»[٩].

فى المقولات السابق ذكرها، يفقد عيسى ألوهيته، ولكنه يُرفع إلى مكانة عالية، ويستمر السموّ به إلى أن يكون مضمونًا للتجلى والوحى. ولكن إذا تساءلنا ماذا إذا لم تكن هذه المقولات تلاعبًا بالألفاظ، وتوابع لما حدث وقيل وصيغ فى إزنك؟ ذلك لأن علماء اللاهوت الذين يتبنون فكرة «الحدث» لا بد وأن يقبلوا أن نعارضهم بالحقيقة التالية: إن بناء أفكار من نقطة لا نستطيع إثباتها تاريخيًا ولكن نَعُدُّها جزافًا حدثًا وقع فعلًا، لهو أمر كفيل بأن يزج بنا فى تأملات نظرية غير مجدية.

وهناك نظريات أخرى تتسم بصيغة عقلانية مما يزيد من فرص نجاحها وانتشارها على مستوى كنائس العالم. وضع هذه النظريات البريطانى جون هيك (برمنجهام) المسيحى

---

(٦) فوكس فى kirste ص٣٧٤، ٣٧٦.

(٧) كراج (١٩٨٦) ص٥.

(٨) كلاوس برجر: «فى البدء كان يوحنا» ـ دار نشر كويل، شتوتجارت، ١٩٩٧، نقلاً عن محادثات من خلال هلموت لور فى FAZ بتاريخ ٣/ ٦/ ١٩٨٩.

(٩) ليلونج (١٩٨٦)، ص١٦٠.

الأنجليكانى. لقد توصل هيك إلى أن عيسى إما أن يكون إنسانًا فقط، وإما أنه لم يكن إنسانًا على الإطلاق. واختار هيك بشكل مطلق أن يكون عيسى إنسانًا فقط.

لقد رأى هيك أن عيسى كان إنسانًا فقط اختاره الله ليحمل رسالته الإلهية، وأنه لم يكن معصومًا من الخطأ.

لقد تمثلت رسالته فى أن يضيف إلى صورة الإله القاسية الموجودة فى العهد القديم، صورة الإله المحب الرحيم، وأن يضفى على وصايا موسى وتعاليمه روحانية، وأن يضفى مسحة أكثر إنسانية على تشددات التلمود. ولقد عَدَّ هيك عملية تأليه عيسى والتى جاءت زمنيًا فى وقت لاحق لحياته، وتحويل عيسى إلى الشخص الثانى فى مسألة الثالوث الإلهى المقدس «طريقة أسطورية ورمزية للتعبير عن معنى وقيمة عيسى». لقد تحولت صورة عيسى «كابن للرب»، وهى كناية صاغها اليهود الموحدون، إلى نظرية أشبه ما تكون بنظرية الإغريق فى تعدد الآلهة وعلاقة الإله الأب بأبنائه[١٠].

ترتكز نظرية هيك التى تدعو إلى إلغاء ونفى فكرة التجسيد إلى حقيقة أن عيسى نفسه لم يتحدث فى أى لحظة عن نفسه كإله أو عن ثالوث إلهى. تتمركز رؤية هيك الشاملة على عيسى أكثر منها على الإله، ولكنه لا يجزم إن كان وقوع حدث المسيح هذا فريدًا أو أنه سيظل كذلك. فيقول: «إننا لم نعد نتحدث عن نقطة تقاطع بين الإلهى والإنسانى، هذا التقاطع الذى حدث فى حالة واحدة فقط هى عيسى»[١١]. ويختلف موقف عالمى اللاهوت الكاثوليكيين رانر، وكونج عن هيك، فكلاهما لا يرفض الحجج التى تساق لرفض فكرة الثالوث الإلهى متضمنة عيسى كشخص إلهى داخل هذا الثالوث، ولكنهما يجتهدان فى إعطاء عيسى مكانة الصدارة التى تحميه من أن يكون مجرد رسول مثل باقى الرسل. أى أن كليهما يعترض على فكرة الآلهة، والتى يتضمنها منطق فكرة التجسيد.

ولقد توصل رانر من خلال إعادة التفكير فى تعاليم التجسيد إلى تعريف آدمية وإنسانية عيسى الحقيقية، حين قال: «إن من يقول إن عيسى هو الإنسان الذى يعيش حالة تسليم الذات لله بشكلها المطلق، يمكنه بهذا القول أن يعبر عن حقيقة جوهر المسيح فى عمقها بشكل صحيح».

ويعتقد رانر أن «التجسيد» الإلهى فى الحياة الإنسانية إنما هو احتمال عام، ويكون عيسى بهذا المثال الكامل والأوحد لمثل هذا الإلهام.

---

(١٠) هيك (١٩٧٧) الفصل الأول. ويشاركه بول تشفارتزناو (١٩٨٢) الرأى ذاته ص١٢٣: «لم تتم تسمية عيسى فى المسيحية الأولى والمرحلة التى سبقتها بالرب. بل إنه من المؤكد أن شخصية عيسى التاريخية ما كانت لتسمح أو تقبل بعملية تأليه لشخصه».

(١١) هيك (١٩٩٤) «التعدد والتنوع الدينى والحق فى المطلق»، ص١٤٦.

أما لغة هانزكونج فتبدو أقل خفوتًا ورونقًا، ولكنها تظل حسب رأيي أقل من مطالبة لودمان فى أن يكون للحقيقة الصدارة فى الخلاف الدائر بين الكنيسة والحقيقة. فكونج يعترف من ناحية برب إبراهيم ورب عيسى، وأن عيسى دعا ـ بوصفه مختارًا من هذا الرب ـ له باسمه، أى أن عيسى إنسان مميز فريد «اختاره الله وأعطاه قوة مطلقة». أى أن التثليث يتضاءل هنا إلى حد «وحى الله فى المسيح من خلال الروح»[١٢]، ولكن من ناحية أخرى يكتب كونج أن هذا الإنسان الحقيقى عيسى الناصرى، وحى الله الحقيقى، هو فى لغة أقرب ما تكون للغة الكتاب المقدس هو المسيح، المخلص، صورته وابنه. وتجتمع فى المسيح عيسى هذا روح الله، سلطته وقوته. ويتوحد المسيح الإله مع الإنسان، أى الشخصية التاريخية لعيسى الناصري[١٣]. وبهذا يثبت كونج أنه لا يزال الابن الوفى المطيع والتابع لكنيسته وتعاليمها.

ولقد تسلطت أضواء على عنصرى «الصلب» و «القيامة». واكتسبا رؤية جديدة؛ حيث نالت الرؤية القرآنية مساندة من جانب التيار النقدى فى علم اللاهوت والذى أثبت أن عملية المحاكمة وتوقيع العقوبة قد كانتا فى يوم الجمعة قبل عيد فصح اليهود مباشرة، وأن الكلمات التى تنسب للمسيح وهو على الصليب لا أساس لها من الصحة، وأنها رواية مؤلفة فى زمن لاحق لهذا الحدث.

أما الاعتقاد بقيامة المسيح، والتى أصبحت ظاهرة تؤمن بها جماعة المسيحيين بأسرها، فيراها لودمان «رد فعل متسلسل»[١٤] لا مثيل له.

أعتقد أن هذا العرض الموجز يكفى دليلًا على الأزمة العميقة التى تعيشها علوم اللاهوت المسيحية والمسيحية ذاتها وتعاليمها فى العالم المسيحى، والتى يعد إيوجين درفيرمان أخيرًا وليس آخرًا أحد مؤشراتها البارزة. ويصور القرآن هذا الموقف بدقة شديدة فى سورة الشورى الآية ١٤: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

ولكن من غير المتوقع أن تؤدى هذه الأزمة (حتى الآن) إلى دخول حشود المسيحيين فى دين الله كما تبشر سورة النصر بذلك: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾، ولكن بالأحرى ستدفع هذه الأزمة بنهاية المسيحية المرتبطة بالكنيسة التقليدية، وسيؤدى ذلك إلى زيادة شعور الجماهير بالاغتراب عن الدين عامة، وتزيد من رغبة الإنسان الفرد بانتقاء ما يريد ويناسبه من المعروض فى سوق الديانات والمعتقدات والتى هى أشبه بالسوبر ماركت.

---

(١٢) كونج (١٩٨٧).

(١٣) كونج (١٩٨٨) ص٣٣، ٤٣ ٤٥، ٤٩ ٥٠، ٥٤.

(١٤) لودمان (١٩٩٥) ص٢٢٧.

- ٢ -

لا يصل هذا التطور السابق ذكره والذى تشهده علوم اللاهوت المسيحى، إلى مدارك الجموع المؤمنة التى تذهب أيام الآحاد إلى الكنيسة؛ لأن المسيحية تشهد حالة من «الانفصال العميق بين التقوى والورع وبين العلم، أشبه ما تكون بحالة الشيزوفرانيا»[١٥].

فبالرغم من الزلزال الذى ضرب علم اللاهوت، لا يمكن إلا أن نتوقع استمرار الجموع البسيطة من الكاثوليك فى پولندا، وكرواتيا، وأيرلندا، وإسپانيا فى المشاركة فى المواكب التى تقام إجلالًا وتقديسًا «لأم الإله».

يتشابه هذا التطور بما أحدثه كلٌّ من هايزنبرج، وأينشتاين، وماكس پلانك، وبوهر من تحول فى بدايات القرن (الماضى) من الفيزياء النيوتنية (نسبة إلى نيوتن) إلى الفيزياء الجديدة. فلقد أدركت العامة نتائج نظريات هؤلاء بعد نصف قرن. فى جميع الأحوال، فإن مصداقية الكنيسة أو عدم مصداقيتها يتوقف اليوم على موقفها من علماء اللاهوت الذين يتبعون منهجًا تاريخيًا نقديًا، وما توصلوا إليه من نتائج، وعلى إذا ما أفرجت الكنيسة عن هذه النتائج أو اختارت طيها فى بئر الكتمان.

وتفتح عملية رفع هالة الألوهية عن عيسى وتخليصه من المسحة الأسطورية والملحمية الباب واسعًا أمام تصالح المسيحية مع غيرها من الديانات والمعتقدات غير المسيحية، وبخاصة الإسلام.

إن النتائج التى تتيحها عمليه التصحيح هذه مذهلة؛ لأنه إذا ما توطدت فكرة أن عيسى رسول الله ـ وهى مكانة عظيمة تحظى لدى المسلمين بتقدير واحترام بالغين ـ فإن هذا كفيل برأب الصدع بين المسيحيين والمسلمين، ذلك الذى أحدثه المجمع الكنسى فى إزنك. إن الأمر لا يتعلق بأن يشعر المسلمون بأنهم على حق عندما تتطور المسيحية لتدرك أن المسيحية المذكورة فى القرآن هى الأصل وهى الصحيحة، ولكن إذا حدث هذا فسيكون الإسلام قد أدى رسالته فى إصلاح المسيحية وتخليصها مما علق بها من شوائب وتلفيقات، وعاد بها إلى أصلها. وبهذا يكتسب الحوار العالمى فرصًا جديدة ليس على المستوى الإنسانى فحسب، بل كذلك على مستوى النظريات؛ لأنه فى هذه الحالة لن تصبح مسألة الطبيعة الإلهية لعيسى أحد المحرمات التى لا تمس ولا تناقش كما ذكر هانزكونج. وبهذا سيكون تمسك المسلمين بالمسيحية التى وردت فى القرآن لمدة ١٤٠٠ عام قمرى عملًا آتى ثماره، واستحق هذا العناء والمثابرة.

---

(١٥) لودمان (١٩٩٤م) ص٢٠٩، ٢١١، (١٩٩٥) ص٨.

لقد أحدث المنشور البابوى الذى أتى ذكره فى الفصل السابق تغيرًا ملموسًا.

فلم يعد الحديث قائمًا عن هلاكٍ كلِّ من هو خارج الكنيسة. لقد تخلت الكنيسة عن موقفها هذا (لانجاة خارج الكنيسة)، الذى يعود إلى قرون طويلة. (أما فى المجال العلمانى، فيتحول هذا الموقف فى إطار العولمة لصياغة أخرى «لا حضارة خارج الغرب!»).

يتجلى هذا الموقف فى أكثر أشكاله تطرفًا فيما ورد فى المنشور البابوى لعام ١٩٧٩ فى الفقرة ١٤، والتى جاء فيها «إن الإنسان، كلَّ إنسان بلا استثناء، قد نجا من خلال المسيح، وكلُّ إنسان مرتبط بالمسيح بشكل أو بآخر، حتى لو لم يعلم الإنسان هذا».

إن المسلمين وفق هذا القول ـ وبتعبير رانر ـ هم مسيحيون بدون أن يعرفوا!.

إن المسلمين «يردون التحية» لأنفسهم «فكريًا» عندما يَعُدُّون عيسى (مثله مثل بقية الرسل) كما ورد فى القرآن مسلمًا بالمعنى الأصلى للكلمة، أى أنه إنسان يسلم نفسه كاملًا لله. فلقد ورد فى سورة آل عمران: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾، وكذلك ورد فى سورة البقرة الآية: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

أما مقولة إن المسلمين مسيحيون (بدون أن يعرفوا)، فهى ليست عارية من الصحة تمامًا: إن المسلمين من أكثر الناس احترامًا وإجلالًا ودفاعًا عن مكانة المسيح عيسى ابن مريم وأمه اللذين اصطفاهما الله. وتتأكد هذه الحقيقة عندما يتابع المسلم بدهشة بالغة واستنكار واضح ما يتعرض له كلٌّ منهما، أى عيسى ومريم العذراء من تقليل لمكانتهما واحترامهما على يد بعض علماء اللاهوت المسيحيين أمثال رانك، وسول، عندما يتعرضون لشخص المسيح على أنه شكل من أشكال العاملين فى المجال الاجتماعى العام، ولأمه بصفتها أمًّا غير متزوجة. يتعامل بعض علماء اللاهوت أمثال تشفارتزناو، ووات، ومرة أخرى هيك، مع الموقف الحالى ونتائجه بشكل صريح. يرى هؤلاء أن جميع المحاولات التى تستهدف الحفاظ على صدارة المسيحية ـ خاصة بعد تنقية صورة عيسى من جميع العناصر الأسطورية والملحمية، وبالتالى المسيحية ـ ليس لها أدنى أمل فى تحقيق النجاح. يعتقد تشفارتزناو الذى يتحدث عن بداية زمن ما بعد المسيحية، وعن ظهور عناصر دين عالمى، أن عهد المبشرين قد ولى، وأن ساعة عودة البشر لدين الله الواحد قد حانت[١٦].

---

(١٦) تشفارتزناو نقلًا عن كيرست، ص٤٧٨.

يؤمن تشفارتزناو مثله مثل وات[١٧]، وهيك بأن الأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام هى فى حقيقتها وأصولها ذات مكانة متساوية، كما تتساوى فى حقيقتها. ويرى تشفارتزناو أن القرآن بمثابة وحى ورسالة إلهية دينية كونية تصلح للعالم كله، وتتضمن حقيقة رواية عيسى الأصلية. وبالتالى يرى تشفارتزناو أن القرآن يصلح لأن يكون إضافة مفسرة للعهد الجديد.

يتوقع تشفارتزناو للمستقبل أن يتطور الأمر من «توالى موسى وبعده عيسى وبعدهما محمد إلى حالة معية» (أى أن يكونوا معًا).

«سنكون فى أواخر الأيام كلنا معًا داخل الإسلام العالمى»[١٨].

لا يخفى تشفارتزناو مثله مثل هيك اعتقاده أن كافة الديانات رغم مطالبها وأهدافها العالمية وتوجهها للبشر كافة، فهى مرتبطة بالنسيج الثقافى لها، وبالتالى لا تكاد تصلح لتحقيق مثل هذه العالمية التى تصبو إليها. يسمى هيك هذا الأمر «الإثنية الدينية»، والتى تدفع بالمؤمنين والتابعين للديانات المختلفة إلى المحاولة التى لا طائل منها لإثبات التفوق الأخلاقى والفكرى لديانتهم على الديانات الأخرى، مع أن الفضيلة والرذيلة موزعتان بشكل قد يكون متساويًا على العالم كافة.

تكاد الديانات كلها أن تشترك فى نفس الأهداف، وهى عدم تركيز حياة البشر على الدنيا فقط، بل السمو بها عن طريق تركيزها وتمركزها على الله ووجوده. لا تعنى رؤية الديانات المختلفة للحقيقة النهائية أن إحداها على حق والأخرى على باطل، لكن على العكس، فإن كل الديانات ـ وفق اقتناع هيك ـ تشارك فى نصيب متساوٍ من الحقيقة الإلهية.

وهذا الموقف يوضحه أكثر ما يوضحه الضوء الذى ينكسر فى مناخ الأرض إلى ألوان قوس قزح. وهناك تشبيه آخر لاختلاف الديانات مع اتفاقها فى الهدف النهائى، وهى أن الطرق المختلفة تؤدى إلى قمة الجبل نفسه[١٩].

وانطلاقًا من هذه الخلفية التى تتسم بـ «تعدد النظريات اللاهوتية للديانات» يطالب هيك أتباع الديانات والمذاهب إلى نبذ فكرة التعصب لدينهم ومذهبهم واعتباره طريق النجاة الأوحد والمطلق. ويناشد هيك المسيحيين أن يخطوا الخطوة الحاسمة ويعترفوا بأنه بالإضافة إلى عيسى هناك مخلصون آخرون، وأن هناك رسلًا وأنبياء أوحى إليهم غيره، وأنهم كذلك أصحاب رسالات سماوية[٢٠].

---

(١٧) وات (١٩٩٥) ص٤٣.

(١٨) تشفارتزناو (١٩٨٢) ص٩، ٢٢، ١١٧، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٦.

(١٩) هيك (١٩٩٥) ص١٠، هيك فى كيرست ص١١٤، ١١٥، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٨ـ١٤٩، (١٩٨٨).

(٢٠) باومان (١٩٩١) ص٧.

- ٣ -

لا بد أن يلحظ المرء ارتباط تأسيس هذا التعدد الدينى الليبرالى وقبوله، بالفيزياء الجديدة من حيث تاريخ الفكر. فعلوم الطبيعة الجديدة التى تقبل بنسبية غير دقيقة تشبه تقبل هيك للنسبية فى تقييمه للأديان: فالذى يبدو متناقضًا قد يكون كله صحيحًا. يوافق هيك ـ كما توافق علوم الطبيعة الحديثة ـ على ضرورة التفرقة بين الحقيقى والطريقة التى يفهم بها. ويميل هيك إلى رفض أىِّ تقييم نوعى، إنه يتقبل بطبيعة الأمر أن يتحلى المرء بانحياز إيجابى أو حكم مسبق إيجابى لدينه، ولكنه يرفض أن يكون المرء سيئ النية تجاه ديانات الآخرين.

لا يتشابه هذا مع علوم الطبيعة الحديثة فقط، ولكن مع أحدث صيحات الفكر واتجاهاته فى بدايات الألفية الثالثة.

الملمح المميز لما بعد الحداثة فى الفلسفة، والتاريخ، وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا هو نبذ المنظومات الكبيرة والنظريات الشاملة العامة. فبدلًا من الشرح، يحتل الوصف مكان الصدارة، ويتم تفكيك علاقات فكرية إلى مجرد طرق محادثة. فالعلم يتم «تدويره» وتحريكه فى اتجاه ما بعد الحداثة.

فالنص آخر الأمر هو نتاج ما يفعله القارئ به، أى القارئ مؤلفًا!

وكلُّ شىء له الحق فى أن يتمتع بالقدر نفسه من الحماية: كلُّ ما هو صغير، كلُّ ما هو غريب، كلُّ ما تهدده الأغلبية: النساء، والأطفال، ومدمنو المخدرات، والشواذ جنسيًّا، والنحل الدينية، والحيوانات.

ويتمثل رد فعل ما بعد الحداثة على حالة الفقر الفكرى والروحى للحداثة فى مظاهر العصر الجديد، مثل: كشف الغيب، وعلوم إعادة التجسيم، والنحل المسيحية الجديدة الملفقة، والدين المدنى، ونظريات البيئة وأساطير الطبيعة، وغيرها الكثير مما نجده فى السوبر ماركت الدينى المعاصر.

ويستشعر الناس اليوم الخوف من كلِّ ما يتسم بالنظام والقواعد. ففى عصر ما بعد الحداثة يبتعد الناس عن «الموضوعية» كهدف وإمكانية، لدرجة أن الكثيرين ينفون عن العلوم الطبيعية مسألة المعيارية.

فالجوهر الأساسى للأسئلة الفلسفية القديمة مثل: ماذا أستطيع أن أعرف؟ ماذا على أن أفعل؟ ما الذى أستطيع أن آمله؟ كلُّ هذه الأسئلة تطرحها ما بعد الحداثة كتساؤلات، ولكنها لا تبغى من ورائها إجابات. ولكن إذا أصبحت كلُّ مقولة مجرد مادة تأملية، فسيصبح عن

قريب من الفضائل ألا يكون للمرء رأى (no view)، وكذلك لا يحدد لنفسه هدفًا (no goal)، وستصبح كلُّ حماسة دينية وانتماء عقائدى تطرفًا. هذه النسبية فى القيم ستؤدى بطبيعة الحال إلى عدم اتخاذ مواقف، وليس للتسامح وتقبل الآخر (رومان هرتزوج)[٢١]. والنقيض هو الصحيح: تقبل الآخر والحق فى وجود أشياء مطلقة متلازمان.

لقد تبين للناس أن «الحلول النهائية» تكمن فى منطق الدولة الحديثة. لقد عبر زيجمونت باومان عن اعتقاده بأن ما يهدد الوجود الإنسانى ككائن أخلاقى ليس الشهوات ولا الأفكار القديمة ولا الاعتقاد بالخرافات، ولكن ما يهدده حقًا هو العقل، والحضارة، والعلم[٢٢].

يؤدى الاستغناء عن ضرورة وجود فكرة «الحقيقة» إلى اتجاه نسبى ذى طبيعة عدمية، تؤدى إلى أن يختار المرء أىَّ شىء يريده بلا تحديد لموقف ثابت[٢٣].

لكن مرحلة ما بعد الحداثة تتمسك بالإنجازات الرئيسية للحداثة، وهى: فصل الدولة عن الكنسية، والتعدد الفكرى، ورؤية تاريخية خطية مستقيمة. ميتافيزيقيا ملحدة، رسالة التبشير بالإنسان محور الكون.

- ٤ -

لا يؤدى السؤال عما إذا كان عيسى يوحد البشر أم يفرقهم دورًا مهمًّا فى مشهد مرحلة ما بعد الحداثة؛ حيث لا تولى الأخيرة أهمية لمثل هذه التساؤلات. ولكن من المهم جدًا للمسلمين أن يعلموا إلى أين تأخذهم هذه المرحلة؟ فمثلًا ما هدف چون هيك بالنسبة للمسلمين؟ إلى أين يريد أن يتوجه بهم؟.

تعتبر الرؤية الإسلامية مرحلة ما بعد الحداثة هذه إحدى النتائج المتأخرة للحداثة والتى تتحمل مسئولية انتشار الإلحاد، والعلمانية، وفقدان القيم والمعايير، وفقدان الأشياء لمعانيها ومضامينها. إنها رد فعل مأزوم على عالم مرعب لا يمكن ـ على أقل تقدير منذ الحرب العالمية الثانية ـ بأى حال السيطرة عليه، لا من خلال مثل وقيم التنوير، ولا حتى بقوة ردع السلاح[٢٤]

---

(٢١) منح جائزة السلام الألمانية للأستاذة الدكتورة شيمل، فرانكفورت ١٥/ ١٠/ ١٩٩٥ ص٩.

(٢٢) بومان (١٩٩١).

(٢٣) العطاس (١٩٩٦) ص٥٠٨.

(٢٤) The Muslims World Book Review, Mansoor لعام ٧ رقم ٢ عام ١٩٨٧، ص٣، لعام ١٤ رقم ٣ عام ١٩٩٤ ص٩.

يعتقد إيمانويل كلرمان أن الإسلام يكتسب أهميته وقيمته المطلقة مقارنة بالأديان الأخرى، فهو يقدم أفضل ما يمكن للدين أن يقدمه[٢٥].

ولذلك، لا ينبغى لأحد أن تصيبه الدهشة إذا ما رفض العالم الإسلامى أن يشارك فى مسألة اللامبالاة بالمعتقدات؛ لأن المخاطر الناجمة عن هذا لا يغفلها العقل. إن هذا الأمر بمثابة كابوس سيؤدى بالعالم إلى طريق مسدود، سيعمل على أن تفقد الأشياء معانيها وقيمتها، سيفقد العالم الأمان، والتراث، والتقوى. لقد عبر أندريه مارلو عام ١٩٦٨ عن هذا حين قال: «إننى أؤمن بأن حضارة الماكينات هذه هى أولى الحضارات بلا قيمة عليا. إن علينا أن ننتظر لنرى هل يمكن لحضارة أن تكون حضارة تطرح مجرد تساؤلات فقط، أو أن تكون حضارة الآن فقط. وهل من الممكن أن تؤسس قيمها على شىء آخر غير الدين لفترة طويلة»؟.

لا يعتقد المسلمون أن أزمة القيم والمعنى هذه يمكن التغلب عليها من خلال استدعاء القيم الإنسانية والتوصل إلى اقتناعات مشتركة بين المسيحيين واليهود والمسلمين، والليبراليين، والماركسيين، والملحدين، طالما ظل الإنسان هو معيار ومقياس الأشياء كافة، وهو وحده صاحب الحقوق كافة.

إن التمسك الأعمى بنموذج للتقدم يستند على الفرد الحر لن يؤدى إلَّا إلى مزيد من الانتكاسات. لذلك فإن قليلًا جدًّا من المسلمين يولون أهمية لمشروع هانزكونج بإقامة «علم أخلاق عالمى».

لقد كان لكل هذا أثره الواضح فى جلسات برلمانات ديانات العالم المنعقدة فى جنوب إفريقيا فى الفترة من ١ ـ ٨ ديسمبر عام ١٩٩٩؛ حيث ناشد الحاضرون المؤسسات الرائدة فى العالم الحفاظ على الأخلاق. ومن أمثلة النداءات: «لا يصدر عنك فعل لا أخلاقى»، «احترم الحياة»، «إننا نهدف لإقامة عالم تساند فيه التكنولوجيا آدميتنا وتنميها».

كل هذه المقولات الجميلة التى صيغت بصيغة الأمر ولم تتخط القاعدة الذهبية القديمة «أن تعامل الآخرين كما تحب أن تعامل، وأن تحب لأخيك ما تحب لنفسك»[٢٦]، هى الحصيلة الأخيرة لما يتبقى، إذا ما عَدَدْنا أن الأخلاق هى التى ستبقى بعد زوال الديانات.

---

(٢٥) كلرمان: الإسلام، الطبعة الثانية، بازل ١٩٥٦، ص٣٧٧.

(٢٦) تلك القاعدة الذهبية مشتركة فى الأديان الإبراهيمية الثلاثة.

يقول فيشر عن حق: «إن الأخلاق الجديدة لن تستطيع أن تركز على مياه نظيفة فى بحر الشمال أو جزر خالية من الأسلحة النووية. ستفقد مصداقيتها إذا ما أعلنت عن نفسها أنها أخلاق بلا هدف للتفرقة بين الخير والشر، الحق والباطل»[٢٧].

لذلك فإننى لا آمل خيرًا فى نوايا برلمانات الديانات باستهلال الألفية الجديدة وإقامة حدث عالمى فى أيسلندا. وموقفى هذا يسرى كذلك على نية هانز كونج المتمثلة فى كتابه «علم لاهوت منظم لديانات العالم»[٢٨].

إن الإسلام ـ على النقيض من آراء هيك التى تتسم بملامح مرحلة ما بعد الحداثة ـ ليس على استعداد للتخلى عن قيمه «الحقيقة» بالرغم من أن على المسلمين أن يتفقوا مع ما قاله الرئيس الإيرانى د. محمد خاتمى من أن الدين، وتصورنا عن الدين وفهمنا له، لا يتطابقان بالضرورة[٢٩]. يضرب الإسلام تشبيهًا مجازيًا مقابلًا للضوء الإلهى الذى ينكسر فى ألوان قوس قزح، وهو تشبيه الذهب بمعاييره المختلفة وصولًا إلى أنقى درجاته: ٢٤. ورسالة الإسلام، التوحيد الخالص، أشبه ما يكون بالذهب فى أسمى درجات نقائه وخلوه من المعادن الأخرى، أى ذهب عيار ٢٤. ليس هناك درجة أعلى من هذا التوحيد يمكن للمرء أن يتخيلها، وهذه الدرجة غير مرتبطة بثقافة بعينها.

لا يعنى هذا أن الإسلام ليس على استعداد لتقبل الديانات الأخرى والتسامح فى وجودها، خاصة أن هذا التعدد والتنوع فى الديانات مشيئة الله وشأن من شئونه فى خلقه، كما ورد فى الآية ٤٨ من سورة المائدة. ويتضمن القرآن مبدأ يصلح ليحكم العالم، وهو الوارد فى سورة الحج: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾.

ما بعد الحداثة يرفض فكرة وجود قيم غير مرتبطة بزمن محدد، أى قيم تعلو فوق الزمن لتصلح لكلِّ زمان. أما الإسلام، فيرى أن التاريخ ما هو إلا حقب فانية ـ مثل الحداثة وما بعد الحداثة ـ لكن الباقى والمستمر تعاليم الله. لذلك أعتقد أن علينا أن نتعامل مع التنوير بشكل مغاير عندما نتحدث عن الإسلام.

---

(٢٧) فيشر: أخلاق بلا أخلاق FAZ ١٦/ ١١/ ١٩٩٥.

(٢٨) كونج: Die Welt ٦/ ٣/ ١٩٨٩، ص١٣.

(٢٩) خاتمى. FAZ ٢٦/ ٩/ ١٩٩٨ ص٣٥.

فلم يأت التنوير بالضوء ليخترق ظلمات التقاليد الإسلامية ونصوصها من قرآن وسنة، بل إن هذه القيم والقواعد من قرآن وسنة هى التى انبعث منها النور والضياء.

يتعامل المسلمون بشك وريبة مع ما بعد الحداثة؛ لأن تسامحها وتقبلها لكل شىء يتقلص وينتهى إذا ما كان هذا الأمر متصلًا بالإسلام.

فالمسلمون لا يتمتعون بأىّ مزية من مزايا الأقليات فى أوروبا الغربية.

فالحداثة وما بعد الحداثة تتعامل مع فوبيا الإسلام وحالة الذعر المرضى منه بنفس الشكل والأسلوب، والمثال الواضح على ذلك هو علم اجتماع الديانات.

فإذا كان الآباء والمؤسسون من أمثال دوركهايم، وڤيبر، وماركس، وسيمل قد انطلقوا فى تصوراتهم عن اختفاء منظم للإسلام، فإن خلفاءهم اليوم ممن يروجون لما بعد الحداثة لا يختلفون عنهم؛ حيث لا يظهرون أىّ تفاهم أو تعاطف أو ود للإسلام. إنهم لا يروجون لشعارات مثل «كنيسة واحدة، إله واحد، وملك واحد»، ولكنهم يرفعون شعارات «ثقافة واحدة، تكنولوچيا واحدة، نظام عالمى واحد».

***